مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية،المجلد 28،العدد 10: 2020.
Journal of University of Babylon for Humanities, Vol.(28), No.(10): 2020.

صراع الهوية في الرواية العراقية: رواية الحفيدة الأمريكية إنموذجاً

زينة حمزة شاكر
كلية الفنون الجميلة/ جامعة بابل
drzeenahamza@gmail.com

معلومات البحث
تاريخ الاستلام : 2020 /9/24
تاريخ قبول النشر: 10/ 10/ 2020
تاريخ النشر: 2020 /11/26

المستخلص

تشكل هذا البحث عبر مسار اشتغالنا في رصد تجليات انشطار الهوية في فضائها العراقي من خلال تقصي الخصائص النوعية للخطاب الأدبي التي تصلح لأن تشكل ظاهرة فنية. وكان ان أثمرت الدراسة عن بعض النتائج ومنها:

1- امتلكت الكتابة الروائية في مضامينها المباشرة رؤية سياسية للاحداث ومعالجة وضع المرأة ضمن الحراك السياسي والتي عصفت بالإنسان العراقي

2- انفصام الشخصية الروائية النسوية بين الواقع والمرآة في أدائها الحياتي والذاتي، إذ توقف النص الروائي النسوي لرصد تجليات تشظي الهوية الوطنية ، وعرض أهم التغيرات التي أصابت الهوية نتيجة ظروف الحرب والنزاعات السياسية والطائفية والإرهاب والمنفى.

3- للنص الروائي النسوي شعريته من حيث ترسم النعوت ذات مرجعيات انثروبولوجية وشعبية عراقية عززت بها الذات انشطاراتها وحنينها (نستولوجيتها) إلى الماضي من خلال توظيف الموروثات والتقاليد والأطعمة ممثلة بخصائص المكان وجزءاً من جغرافيته الثقافية

4- تنوعت أداءات الجسد في المتن الروائي بين الفعل والاستجابة ، شكل الجسد في الكتابة النسوية دال صوري بالشكل الذي ينشطر الى دلالات متنوعة بين ذاتي وموضوعي وفقاً للفضاء الاجتماعي نفسه.

الكلمات الدالة: الفضاء، الهوية، التشظي، الوطن، المنفى

Identity Conflict in the Iraqi Novel: The Novel of "The American Granddaughter" as an Exemplar

Zeena Hamza Shakir
College of Fine Arts/ University of Babylon

Abstract

This study is formed during the course of our work in monitoring the manifestations of the fragmentation of identity in its Iraqi space through investigating the qualitative characteristics of literary discourse, which are suitable to constitute a technical phenomenon.The study yielded the following results:

1- Novel writing possessed in its direct contents a political vision of the events, dealing with the position of women within the political movement that has afflicted the Iraqi person

2-The schism of the feminist narrative personality between reality and the mirror in her life and self-performance, as the feminist narrative text stopped to monitor the manifestations of the fragmentation of the national identity, and presented the most important changes that affected the identity as a result of the conditions of war, political and sectarian conflicts, terrorism and exile.

3-The feminist narrative text has its poeticism in terms of drawing epithets with Iraqi anthropological and popular references by which the self-reinforced its longing and nostalgia to the past by employing legacies, traditions and foods represented by the characteristics of the place and part of its cultural geography.

by University of Babylon is licensed under a Journal of University of Babylon for Humanities (JUBH)
Creative Commons Attribution 4.0 International License

4-The performances of the body in the narrative text have varied between action and response. The body in feminist writing is D. My image in the form that splits into various meanings between subjective and objective according to the social space itself.

Key words: The space, Identity, Fragmentation, Motherland, Exile

مدخل

في رواية (الحفيدة الامريكية) قدمت (أنعام كجةجي) في روايتها تحدياً لنسق الذكورة من كون المرأة عنصراً منخرطاً في صلب الحدث الاجتماعي ثم تخصيص هذا الحدث بالحرب التي هي لازمة ذكورية، لكن ان تكون المرأة مشتركة في حرب مع بلدها بالولاء ضد بلدها بالانتماء فهو نسق مغاير للانساق التقليدية المعروفة فمن جهة قدمت صورة مغايرة لصور النضال المعروفة، ومن جهة أخرى فأن مهام الحرب هي مهام ذكورية، وقيام المرأة بهذه المهمة هو انزياح عن الانساق الاجتماعية المهيمنة. ليس هذا فحسب فقد صورَت الحرب سقوط الاقنعة ودفعت بالساردة الى الكشف عن اسرارها الشخصية وهي تتمرد على الواقع فلا تعرف إلا خياراتها حين تروي قصة الحرب على بلدها، فتختلط الانتمائات وتتصارع الهويات، ويبقى الولاء هو ايقاع الرواية والمستوى العميق للنص وقد أتاح توفر الأعراق والديانات أرضية صالحة للكاتبة وعُدّت محفزاتٍ لتناول موضوع الحرب بدلالاتها الواقعية والفنية. كما ان الرواية لا تخلو من الازاحة والتهميش للمرأة في جعل بطلة الرواية (زينا) مجندة في محاولة لتقليد النسق الذكوري بالملبس والمأكل والتصرفات، لا ان تكون ذاتها بل تنجح بمقدار مطابقتها للنموذج الذكوري لكي تكون مجندة في الجيش الامريكي، فالرواية في جانب منها تستجيب لهيمنة النسق وفي جانب اخر تتمرد عليه مما يجعل من ايقاع الشخصية لا يسير على نمط واحد بليتبع نظاماً متغيراً يتبع توصيف الأحداث في السرد. تعيش بطلة الحفيدة الامريكية (زينا نهام) جدل الهوية في فضائها العراقي تحديدا وبطريقة معاكسة.

ينطلق السرد في ايقاع زمني سريع يتنامى مع نمو الاحداث، بحيث ان افتتاحية الرواية تميل الى تلخيص الاحداث التي وقعت في الرواية على مدى صفحات في صفحة واحدة " اتستر على جوفي لئلا يفور ما فيه وينضح ويشيب الهزة التي حدثت لي منذ ان عدت من بغداد خرقة معصورة من خرق مسبح البلاط (...) اراني على الشاشة قديسة مخذولة تحمل حاجياتها في كيس خاكي على الظهر(...) تسير وراء جنود مهزومين يرفعون شارات النصر. اين رأيت هذا المشهد من قبل؟ أليس هنا في العراق، أيضا، في زمن ماضٍ وحياة اخرى؟ هل تتناسل الجيوش المهزومة على خصب هذه الارض وبين هذين الرافدين"[1].

يجدر الانتباه الى ان الاستباق يتغلب على الاسترجاع في بداية الرواية للدلالة على نكوص الذات وسردها الازمة وهي قائمة فعلا. وهي اول اشارة الى طابع المكان السياسي اذ تحمل الكتابة هنا وعيا جمعيا، فـ(زينا بهنام) هي امتداد لانشطار الهويات وتنازع الانتماءات بعد حرب 2003. لذا فالفضاء هنا هو ايقاع خاص متمثل بالرؤية للواقع وانقساماته بعد الحرب. وقد " استطاع الخطاب السياسي ان يعطي تشكيلا خاصا للمكان اتسعت فيه ملامح الحزن والقلق والانغلاق والضياع والغربة والموت"[2].

ويبدو تناول الكاتبة لدلالة المكان السياسية من خلال تناول قضايا الحرب والارهاب وتداعياتها، اذ ترتبط دلالة الحرب بدلالة الارهاب في كونها تحيل الى دلالة خاصة في تدمير المكان و ازاحته عن الوجود وهو بحد ذاته ازاحة في عرض قضايا جديدة بعيدة الى حد ما عن الموضوعات التي اثارها الادب النسوي[3]. يبدأ السرد مبنيا على حاضر الساردة وهي تروي قصة رجوعها من العراق وهذا الاستباق للحدث قبل سرد

الرواية هو استباق تكراري[4]، اذ تصرح في هذا الاستباق " لم اعد امريكية عادية بل انسانة من منبع آخر بعيد وموغل في القدم، تطوي اليد على جمرة حكاية تندر مثيلاتها" [5].

ثم تبدأ بسرد حكايتها من خلال تقنية الاستذكار والاسترجاع في تقديم الفضاء من خلال ترنيمة الجدة رحمة في اول عودة لها الى العراق منذ ان تركته وهي طفلة وها هي الان تعود اليه ولكن كمجندة قادمة لخدمة بلدها في تحرير العراق وبين الحاضر والماضي المسترجع في الذاكرة تنشأ مفارقة زمنية اذ يحقق "المزج بين زمنيين مختلفين للنص القدرة على تغيير الدلالات الاصلية المشحونة فيه كما يعطي للنص تلك المؤشرات التي تكتسب معنى دلاليا اخر، يشغل مساحة اخبارية سردية، تجمع بين الدال الحاضر الذي يرمز الى المدلول الغائب (...)، مولدا رؤية جديدة، ينتقل من خلاله الحدث الى مستويات شعورية متعددة، فتتوسع الاضاءة الكاشفة للنص السردي[6]

ويؤدي المكان هنا دورا في تطوير الحدث من خلال الملامح العامة والخاصة اذ يشكل العراق في رواية (الحفيدة) تجربة دلالية وتعبيرية اذ يتداخل اليومي بالمتخيل في الكتابة وتتنوع الانتماءات في بلد فرقته الحروب وجعلت فيه ساحة لاختبار الولاء بين سنة وشيعة.

ان القراءات المتعددة للرواية العراقية إذا سلّمنا بنظرية تعالق القراءات تضعنا امام " فاعلية هذه القراءة التي تقترحها اسئلة الرواية العراقية الحديثة اذ تضعنا امام اشكالية البحث عن هوية المكان العراقي باعتباره مكان ازمة، أو مكان اغتراب، أو حتى مكان خبرات تعرض للكثير من التشوهات جراء موجهات العنف السياسي والاجتماعي، والحرب وأخيرا المنفى بوصفه موجها طاردًا " [7].

دفع الولاء الجديد للحفيدة في المنفى ان تعمل مجندة في الجيش الامريكي مقابل اجر مالي، قدمت (زينا) الى العراق وكان اول مرور لها ببلدتها الموصل حيث جذورها العراقية وتظهر المدينة هنا حاملة لدلالات متشظية في الذاكرة فالناس والأشياء والموجودات والروائح والطعام تشكل نسقًا من العلامات وهذا النسق تدخل فيه جميع الممارسات الاجتماعية الخاصة بالفضاء. "ثمة أمكنة روائية تحكي و تقول وتتمثل العمل الروائي برمته حتى تكون هي الرواية ولا شيء غيرها"[8]. تجسد (زينا) حال قدومها اولى ملامح انقسام الذات في الفضاء والتناقض الصريح بين المشاعر والافعال "وددت لو أقفز من العربة المدرعة واصيح " الله يساعدهم" أن اتبادل وياهم اي حديث (...) كنت اريد ان اتباهى امامهم بأنني منهم، سليلة منطقتهم، اتكلم لغتهم بلهجتهم وبأن جدي هو العقيد الركن يوسف الساعور(...) والتعليمات تريدني خرساء.

لذلك تضايقت للمرة الاولى من بزتي العسكرية التي تعزلني عن الناس (...) وعلى ان اكون ابنتهم وعدوتهم في آن واحد. وان يكونوا هم، في الوقت عينه، اهلي وخصومي"[9]. تعيش (زينا) مترنحة في ادراكها لفضاء وجودها تحت هيمنة الولاء والانتماء المتشظي "وبقدر ما تتضح درجة الانتماء الى فضاء الهوية تتحول الى ادراك هذا الفضاء اساسا كعلائق حية، حيث يتشابك الانسان بفضائه" [10]، بذا شكل النص في بعده المكاني مرجعا خاصا للهوية العراقية حيث الحفاظ عليها شكل من اشكال الوطنية، اذ تميزت الساردة باحتفائها بالمكان في اول وصول لها اثناء مرورها ببلدتها الموصل واستذكار الغنية (ديل ديل ديلاني) التي هي جزء من ذاكرة المكان احتفظت بها اثناء مرورها وهذه الاحالة الزمنية الى المكان باستعارة دلالة الاغنية هي اول بوادر انشطار الهوية في الفضاء.

تعيش (زينا) وضعا نفسيا مركبا بين فضائيين، فحدث العودة يحمل سمة مفارقة، فالعودة الى بلدها بعد انقطاع دام سنين هي عودة مصحوبة بفعل شائه للذات " تعود الى الارض التي غادرتها قبل خمس عشرة سنة لا عودة زائرة مشتاقة الى مسقط رأسها بل جندية الى أرض قتال"[11]، لتحرير بلدها بالانتماء يضع فعل

العودة الساردة امام خيارين اما الولاء للأرض التي تنحدر منها جذورها أو الولاء للدولة التي منحتها مباركة جنسيتها، يتخذ الصدام مع الذات مرحليتين الاولى في فترة قدومها وهي تتجه مرورا ببلدتها الموصل ثم في لقائها بالجدة رحمة "انت تشتغلين مع الامريكان، مو هشكل؟ قاطعتني بفزع أم شرقية تشك في ان ابنتها البكر حامل وستلوث شرف العائلة" [12].

يتحول الفضاء العراقي الى ميدان لجلد الذات والصدام مع الانا. بذا شكل الفضاء هنا فضاء انتقال وتحول، يتحول هذا الصدام الى خلق حالة من الاغتراب مع المحيط ومن اهم مظاهر الاغتراب هو "العجز (...) ويشير هذا المعنى الى احساس الفرد بالعجز والفشل تجاه تحقيق ما يطمح إليه، وشعوره بالإحباط، الناتج عن وجود فجوة بين ما يتوقعه من نتائج، وما يتمناه من حقيقة "[13]. تقول (زينا): "انا غريبة حتى عن جدتي ام أمي. ان (حيدر) و(مهيمن) و(طاووس) اقرب اليها مني لانهم ظلوا مثلها عراقيين خلصا لا تشوب وطنيتهم جنسية أخرى " [14].

عجزت (زينا) عن تحقيق هويتها الامريكية وتحول الهاجس المادي الذي جاءت من اجله الى هاجس عاطفي مرتبط بالمكان كثقافة من خلال تفاصيله وأشيائه وموجوداته ويبدو التركيز على ماضي المكان ومظاهره الشاعرية كجزء من فاعلية السرد اذ تعكس ملامح هذا الاسترجاع امال (زينا بهنام) في استعادة زمن غائب بديلا عن الحاضر وهذا الاسترجاع يعكس ملامح المكان اذ جسدت الرواية اتصالا بين الفضاء العراقي والشخصيات، فالشخصيات حاملة لسمات هذا الفضاء في المأكل والملبس والأحاسيس التي تجسد نوعا من الانتماء وهذا معناه–ان الفضاء هنا شكل علامة دلالية لها ابعادها الرمزية والثقافية والايديولوجية[15].

في اثناء مرور الرتل العسكري في سامراء تقول الساردة " خرجت صرخة عفوية مني حين لاحت في الافق المأذنة الملوية تذكرت تاريخي الخاص في هذا المكان. السفرات المدرسية وبنات السادس الابتدائي بالضفائر والشرائط البيض، وحلقات الرقص على اغنية "يايمة انطيني الدربين"(...) كانت صور طفولتي تتثال على وجهي مثل زخة مطر حار يكوي ولاينعش" [16].

يكتسب الفضاء العراقي في الرواية هذه تحديدا قيمة مركزية لاسيما في ارتباط جذور الشخصية به، فتنتج لردود افعالها وحركتها وتملأ الفضاء الروائي باستعارات وإشارات تغني الدلالة اذ يبدو " الوقوف عند التفاصيل والتقاطها، الواحد تلو الآخر يشكلان اداة اساسية لتركيب المشاهد المرئية والامساك بفعاليتها الجمالية والشعرية في الكتابة الروائية"[17]، فتفاصيل المكان وتقاليده وشخصياته وأشياءه تعطي احساسا للشخصية بالثبات بالجذور بالأصل الذي انحدرت منه فتخلق بذلك شعرية خاصة للزمن في خروجه عن اطار محدود وثابت وانزياحه عن الزمن المعروف الى زمن تألفه الشخصية وتجد فيه ثباتا واستقرارا في المكان.

تبدو (زينا بهنام) في الرواية فتاة مشبعة بحس عراقي رغم ملازمتها الفضاء الامريكي، وقد أعطت الكاتبة نكهة خاصة للمكان من خلال المناخ والعادات والمأكولات والملبس بمعنى ان الرواية تميل في العمق الى ترسيخ وتأكيد الهوية الثقافية والحضارية للعراق. تتذكر الساردة المربية (طاووس) " تأتينا من بيتها البعيد في مدينة الثورة وبيدها السميط والسمسمية (...) كل هدومنا ونفانيفنا ودشاديشنا وبرداتنا ووجوه مخاديدنا طلعت من بين ايديها"[18]. بذا يتم تناول المكان ثقافيا بمعنى ان الكاتبة لا تركز على المكان كموضع جامد وتفصله تفصيلا مقدسا بل انها تركز على المكان الثقافي الذي يرصد سلوك الناس وتقاليدهم وعاداتهم المتوارثة ونمط حياتهم" [19].

تبدو سلطة المكان في الرواية فاعلة ومؤثرة من حيث تأثيرها على الحفيدة اذ تنعقد بينهما اصرة قوية من التلاحم والترابط تعزز من انتمائها اليه بدلالة السكينة التي غلفتها ما ان وطئت قدمها بيت الجدة (رحمة)[20]. حتى انهالت ذكريات الوطن والجد (سلوان الساعور) والبيت العتيق ويبدو ذلك تلميحا الى رغبة الكاتبة في تأكيد الهوية العراقية للمكان من الشخصيات مما يعني ثراء هذا الفضاء من جهة، وحملت مستوى وطباع خاصة مستوحاة من البيئة العراقية تحديدا من جهة اخرى " ان الهوية اذن وجود وماهية غير انها لاتمثل جوهرا ثابتا ومتعاليا على الزمان والمكان بل حالة متحركة ومتداخلة انها "صيرورة "بالمعنى المجازي والتاريخي الذي يتيح تضمينها اشكاليات وازمات هي لازمة لها، والهوية من حيث هي كذلك هي كل من العلاقات والصلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والاخلاقية والثقافية "[21].

ويحيل ضياع المكان في اغنية سعدون جابر التي تتناص معها الكاتبة "اللي مضيع وطن وين الوطن يلكاه" أو اغنية " كلمن يرده حليبه" الى ضياع الشخصية وانهيارها. اذ تضعنا الاغنية امام مشاعر مباشرة للذات امام المكان فالأحاسيس بضياع الوطن من خلال نص الاغنية هي "صورة لرسم المكان شعريا لا تتوقف عند مستواها اللغوي الظاهر فهناك الصورة الداخلية التي تقوم بتشكيلها الشخصيات عبر قضيتها الاجتماعية والنفسية"[22]. اما علاقتها بـــ(مهيمن) أخيها في الرضاعة فهي نوع من الدلالة المراوغة اذ تحاول الكاتبة ربط الفضاء بعلامات ورموز تحيل الى واقع الفضاء العراقي تحديدًا ممثلا بالجوانب السوسيولوجية للشخصية العراقية ممثلة بـــ(مهيمن) "احببت اسمه قبل ان احبه، كان هو الشخص الوحيد الذي سحبني الى توتر شخصيته واسلوبه الخاص في الكلام. شخص نسيج وحده. عبارة لم تسعفني بها المؤلفة وجدتها بنفسي. هل احببته لصفاته؟" [23].

كأن الكاتبة تصوغ وعيها بالمكان من خلال تشكيلاته المختلفة، لذا يبدو (مهيمن) رمزا من رموز الدلالة "والتلاعب بالدلالة عن طريق الرمز والايحاء يدفع القارئ لتشغيل طاقته وأعمال فكره في تتبع احتمالات الدلالة الهاربة بغية اصطياد ما يتراءى له منها" [24]، فعلاقة (زينا) بـــ(مهيمن) ليست علاقة رجل بامرأة "اول رجل في حياتي يشعرني بالخجل. كل الاخرين كنت ندا لهم (...) وهو الوحيد الذي يمتلك الهيبة"[25]، إذ شكل (مهيمن) جزءا من هوية المكان حبها له هو "حب كياني حيث الهوية، الوطن، التاريخ، الماضي، المستقبل"[26]. وقد لعبت هذه الجزيئات دورا في ترسيخ الهوية المفقودة. ويبدو ان تصرفها معه "تصرف بطريقة مستعارة من هويتها الجديدة ولكن هذا التمايز الواضح بين (زينا) و(مهيمن) لن يحول دون شعور غامض بالرغبة والخوف يغزو (زينا) ويشدها الى مرغوبها واخيها"[27]. وقد تنازعت النص رؤيتان رؤية الاحتلال ممثلة بـــ (زينا) والرؤية الوطنية ممثلة ب(مهيمن) وهذا مؤشر على قلق الهوية وازدواجها، فبينما مثل (مهيمن) خطاب العنف ضد الغرب مثلت (زينا) تذبذبا في الاشادة بالفضاء من جهة ونقدا له في جانب اخر، مجتمع يؤمن بالعلاقات السلبية التي تتم تحت غطاء ديني فلا مانع في ان تتزوج اخيها في الرضاعة لمجرد منحه الجنسية في حين يمنع الدين والعرق الزواج من الاخ في الرضاعة.

يكتسب فضاء الهوية المزدوجة ايقاعا خاصا في كونه فضاء لا يعرف الثبات. وإيقاعه قائم على ديناميته، على مستوى الزمان والمكان. تغادر (زينا) ارض العراق وهي طفلة عراقية ولاءً وانتماءً وتعود اليه في الجيش الامريكي وبين ماضي الشخصية وحاضرها يتولد الالتباس في الهويات والانتماءات وقد خلق هذا الازدواج اتساعا دلاليا في المعنى ففي حين شكل الفضاء العراقي فضاء ذكريات جميلة مستعادة من خلال رموز تحيل الى واقع الفضاء العراقي تحديدا " الاغنيات القديمة، الموروثات الشعبية، أشعار مظفر النواب

وارتباط بالبيت والشارع والمدرسة: وذكريات الطفولة والجدة ومهيمن وطاووس مما يعني ان الكاتبة وضعت جملة من المحددات التي تؤشر شعرية الفضاء فقد وضعت في الاتجاه الاخر ما يقابل هذا الفضاء ويناقضه ممثلا بالفضاء الامريكي حيث الحرية المفرطة والمشاعر الباهتة وانعدام الروابط الاجتماعية.(زينا) في حياتها اللاهية في ديترويت، والأخ الذي ادمن المخدرات ثم افتراق ابيها عن امها وذهابه الى اريزونا ليفتح مكتبه ويعمل هناك اذ تصوغ الكاتبة سؤال النص على لسان الجدة (رحمة) "وين راح الحب الذي تحدت به امك الدنيا"[28]، ازاء تشتت قيم الانتماء الاجتماعي في الفضاء الغربي سرعان ما تنصدم الساردة بجدار ثوابت الهوية، لتكتشف اخيرا ان " الانتماء لا يكون بملازمة مسقط الرأس" [29].

بل هو ادراك فعلي وإحساس نوعي بالانتماء الى الجذور فماضي الشخصية هو حاضر الانتماء والولاء للوطن متعلق الى حد كبير بمكوناته الراسخة تغادر (زينا) ارض العراق لكن ذكرى الوطن لا تمحى من الذاكرة وإذا كان الولاء لأمريكا بمنحها الجنسية اوهمها بتشكيل هوية افتراضية فهويتها العراقية جزء مترسخ في الذاكرة والوجدان اينما ذهبت. ويبقى الولاء بالانتماء سمة الهوية "لم اجلب معي هدايا ولا تذكارات لا احتاج الى ما يذكرني بها. اقول مثل أبي: شلت يميني اذا نسيتك يا بغداد " [30].

الشرق – الغرب

قدمت (زينة بهنام)، مع الجيش الامريكي بدعوى تحرير العراق، الى موطنها الذي ولدت فيه لتجد نفسها تعيش انتمائين. فالحفيدة قبل ان تتلاقى مع الجدة وتتواجه تصرح وتعلن نهاية الحدث من نهايته " اقر بأني عدت مقهورة محملة بحصى الشجن وبحبتين من النومي اشتهيتهما لامي التي يبدو انها اكتشفت نعمة الخذلان من قبل وبالتحديد منذ ذلك اليوم الذي سيقت فيه الى الاحتفال الكبير في ديترويت لكي تؤدي قسم الولاء لامريكا وتنال بركة جنسيتها "[31].

بذلك تصبح رمزية العودة، مع بداية الاحداث للحفيدة الامريكية، كاشفاً دلالياً ومحور التغاير والانفصال في الرواية، تمثيلاً لقطيعة بين ذاتين اجتماعيتين: الذات العراقية والذات الامريكية. تنقسم الرواية الى جزئين يتعلق الجزء الاول بحديث الساردة عن نفسها والجزء الاخر بحديث الساردة مع الجدة (رحمة) عن تداعيات الحرب والاحتلال ثم مع اخيها في الرضاعة (مهيمن).

رواية الحفيدة الامريكية هي قلب لنسق الأنوثة القائم ودلالة على المشاركة الاجتماعية بين الرجل والمرأة. توظف الكاتبة صيغة بطلتها (زينة بهنام) لتحدي النسق الذكوري بأن تجعل من الذات الانثوية تمثيلاً لوجود اجتماعي متغاير ومتنافٍ بين انتمائين. فقد تناولت انعام كجة جي، في (الحفيدة) " فكرة الشراكة القائمة على تقاسم الادوار، فالمرأة عنصر منخرط في صلب الفعل الاجتماعي والسياسي والفكري والاقتصادي، وهي ليست كائناً اثيرياً او هامشياً متشكلاً وجوده في منأى عن كل ذلك، اذ ليس لديها حيز خاص تقبع فيه، وقضيتها جزء من قضايا مجتمعها"[32]. حضرت (زينا بهنام) الى العراق، بوصفها، مجندةً في جيش بلدها القادم لتحرير العراق، في سعيٍ منها لتحقيق مهمة مزدوجة بحكم الانتماء المزدوج لها: امريكية بالولاء وعراقية بالانتماء حاولت خدمة بلدها معلنةً انتسابها الى الجيش الامريكي مقابل اجرٍ مالي مقداره "سبعة وتسعون الف دولار في السنة "[33] لتدفع تكاليف اخيها المدمن وتخفف عن والديها اعباء الحياة الكثيرة "اغسل صدر امي من سخام كل السجائر الرخيصة التي دخنتها بإفراط وهي تنتحب كل ليلة "[34]. وطموح اوهمها بانها تسعى الى تحرير العراق من نظام قمعي مستبد لقد تخلت عن انوثتها حين اصبحت جندية بدخولها الى عالم خاص بالرجال والمحت الرواية الى تبادل للادوار في اطار موضوع الحرب القائم على نسق ذكوري خاص فالرواية هنا هي

خرق لنسق الانوثة. تولت المرأة الكاتبة رواية حرب العراق الاخيرة من خلال دور شخصية (زينا) التي تمزقت بين هويتين، وقد وضعت مشاعرها وهي تروي قصتها عن الحرب في انقسام مشاعر الناس ازاء حدث الحرب بين "اناس يشجعون ويصفقون، واناس يديرون الوجوه ويبصقون ويحذرون من خيانة الارض التي شربنا من دجلتها وفراتها"[35]. دخلت (زينا بهنام) الى حرب غير متكافئة ظناً منها انها "ذاهبة في مهمة وطنية، جندية اتقدم لمساعدة حكومتي وشعبي وجيشي، جيشنا الامريكي"[36]. ظنا منها انها تقدم خدمة لبلدها الاصيل العراق " لن يصدقوا اعينهم حين ستنفتح على الحرية (...) حتى الشيح العجوز منهم سيعود ولدا صغيرا وهو يرشف حليب الديمقراطية "[37]. لكن سرعان ما يرتطم احساسها ووعيها وافكارها بجدار ذاتها الممزقة ومعاناتها من كونها "ابنتهم وعدوتهم في آن"[38]. وان يكونوا هم اهلها وخصومها. يتسع السرد ليحتوي كل المعارف: العادات والطبائع والتقاليد والأكلات، الحب، الزواج، حتى الجذور الدينية (الكلدانية والاشورية والمسلمة). لقد أشارت رواية الحفيدة الى قضايا الانتماء والوطن، كما عبرت عن موضوعات ذات خصوصية اجتماعية تخص واقع المرأة في مجتمعين، مجتمع الغرب ومجتمع الشرق، المجتمع المتحرر الذي اباح لها الدخول مجندة في جيش الاحتلال تلبس ملابسهم، وتتفوه بألفاظهم، ومجتمع تنتمي بجذورها اليه تعزز ذلك الانتماء في اول لقاء على ارضه بالجدة (رحمة) التي مثلت الحس الوطني، والحفيدة التي مثلت ثقافة الاحتلال، وقد شكل اللقاء بالجدة بداية ترسيخ الهوية المفتقدة مما يجعل من هذه الجزئيات الاجتماعية حوافز سردية، ظنت ان الحرب على العراق محاولة لا عادة تأهيله[39]. من خلال دولة عظمى (دولتها التي منحتها الجنسية) متغافلة الفروقات الثقافية والدافع وراء هذه الحرب، مثلت (زينا بهنام) النوع الانثوي الجامح والمتمرد والمتجاوز لهويته الحقيقية الى هوية متقلبة وغير مستقرة، فاذا كان الاشتراك في الحرب هو نوع من الولاء المزدوج فقد فشلت زينا بهنام في تحقيق هذه المهمة: " تصورت ان الديمقراطية شعر بنات"[40]. وقعت زينا في تناقض رهيب بين عالمين مما جعلها تعيش في وضع نفسي مأزوم اذ تطرح مواقفها المتناقضة في الحب والسياسة والحرب، خلقت الحرب نوعا من زعزعة الهوية في الفضاء اذ غيرت المفاهيم وخلقت نوعا من الولاء المزدوج، لقد رفضت انتمائها الشرقي وهي العراقية حفيدة الضابط (سلوان الساعور). تعلن بداية تخليها عن هويتها الحقيقية التي جاءت جزءاً من واقعها الطبيعي، في طبيعة عملها الجديد، رفضها مجتمعها الشرقي بوصفها حاملة لبوادر ثقافة جديدة قادمة من الغرب، بدعوى التحرير اما انتماؤها الى الغرب فهو انتماء زائف فلم " يكشف النص اي احساس حقيقي بالانتماء لامريكا عند الشخصيات. كانت ملاذا فحسب، ومانحة لوثائق حماية"[41].

وقد حاولت الكاتبة توجيه سلطة مغايرة لسلطة الاحتلال في توجيه الرؤية الى ان الحرب في مضامينها العميقة تحمل بوادر التغيير والديمقراطية من خلال الحوار المدار بين زينا ومهيمن ففيما تمثل زينا ثقافة الاحتلال يمثل مهيمن الرؤية الوطنية "بعناكم حلم اجمل من ان يتحقق وخرج من جانبكم تجار وسماسرة"[42]. لكن الديمقراطية التي تغنت بها (زينا بهنام) ديمقراطية زائفة مرهونة بالتحولات الطائفية والاتفاق بين الزعامات، خلقت الحرب نوعا من زعزعة الهوية بين ان تكون مجندة في بلد تريد الولاء له لمنحها جنسيته اوتكون ضده في رفض وطنها للمحتل،عاشت ضياع هويتها: بين مشتركة في الحرب ورافضة لها فتلقي بحكايتها الى مؤلفة صانعة للاحداث وليست هي "تراني المؤلفة ربيبة الاحتلال وترى جدتي من نفائس المقاومة "[43]. تشظت مشاعرها الوطنية التي وصفتها بالخزعبلات[44]، بين طفولة عراقية وشباب امريكي، فلا تبالي ان تكسر الاعراف في سبيل الأفصاح بحبها (مهيمن)، وقعت زينا تحت تاثير انحلال

النسق الاجتماعي في الغرب، في حين حاولت بعودتها الى العراق ان ترد هذا العرف الاجتماعي من خلال توجيه مشاعرها نحو اخيها في الرضاعة لكن هذا يبقى في اطار الرغبة اذ لم يحدث اي اتصال مادي بينهما، الازاحة هنا تكمن في حرية التعبير عن عاطفة خاصة بالانثى. الا أن حبها لمهيمن لم يكن حب امرأة لرجل إنَه حب مجازي هو حب الوطن ممثلاً ب (مهيمن)، لانوثتها التي فقدتها عندما اصبحت مجندة في الجيش الامريكي لأن النظام هناك " نظام معسكرات، كل ماحولنا خشن وذكوري (...) لا ينفع هنا الجهاد للحفاظ على الانوثة انت اما جندي او جارية "[45]. اختارت ان تكون جندية لكن الخيار كان يحمل بوادر فشله منذ البداية. تعيش (زينا) صراعا بين ذاتين؛ ذات انثوية ترفض ان تتخلى عن جوهرها وذات ذكورية في الزي والملابس والافعال يفرضها عملها كمجندة وما إن تلتقي ب(مهيمن) حتى تتغير موازين الاحداث وتعرف انها تقود معركة خاسرة ضد نفسها، اذ سرعان ما تستجيب لمشاعرها الانثوية، كان تعرفها بمهيمن اول صدام بين ثقافتين وفضائين " يفتح مهيمن عينيه فزعاً عندما يسمعني اقول انني لا اؤمن بالحليب الذي يؤاخي الغرباء، ولا بعقود الزواج الابيض ولا بالأستحرامات التي تفسد الصبوات. لا يفهم ان امرأة مثلي لا تحتاج الى اكثر من ان يقرب جمر عينيه منها فتتقد الشرارة ويتهاوى التابو"[46]. في اول لقاء لها مع مهيمن في عمَان يحيل الحوار الدائر بينهما الى دلالة عميقة، هي تتمنى ان تكون زوجة له متجاوزة الحليب الذي يؤاخي بين الغرباء وهو لايمنع زواج اخيه (حيدر) منها على الورق لتسهيل خروجه من العراق الى امريكا لتمنحه جنسيتها فيتناقض خطاب السرد القائم على تثبيت هوية وطنية مع

فضاء المصلحة الذي يقتضي الهروب من الوطن، بذا شكل فضاء الحرب فضاءاً لانقسام الهوية وتشظيها فهو يدافع عن هويته الوطنية بأنتمائه الى جيش معاد للاحتلال ويساوم اخته في ان تجد وسيلة لخروج اخيه من الوطن. ثم معركة خاسرة ضد بلدها: " هل اعيش لاكمل هذه الحكاية التي لا تخصني بقدر ما تخصها هي؟ جدتي، عدوتي، حبيبتي، وصورة شخصيتي"[47]. ويدفع السؤال المجازي الاستهجاني الى اشعار القاريء بأنَه امام امرأة مقهورة، تعيش وضعا مركباً وهي جزء من الخطاب السياسي والتاريخي لبلدها. بل لقد جعلت انعام كجة جي من بطلتها مثال الشخصية التي تفكر وتتحدث بما تشعر به، اذ استطاعت ان تقيم حوارا بين خطابين: الخطاب السياسي ممثلا بالحفيدة والخطاب التاريخي ممثلا بالجدة رحمة في رمزيتها الواضحة. فالشخصيات هنا؛ شخصيات رمزية تمثل صراعاً بين واقعين محتل/ مقاوم.

لم تستطع(زينا بهنام) ان تكمل ما جاءت من اجله، فتعيش في صراع دائم بين الذات الداخلية التي ثارت على نفسها، وبين العالم الخارجي بوصفه سلطة مفروضة عليها لتعلن "انا البنت الضالة، نزيلة المنطقة الخضراء، سجينة الشخصية المرذولة التي تجتهد المؤلفة لتلف حبالها حول عنقي"[48]. لكنها تمزقت بين واقعين وهويتين و ذاتين "رغم حماستي للحرب اكتشفت انني اتألم الماً من نوع غريب يصعب تعريفه: هل انا منافقة امريكية بوجهين؟ ام عراقية في سبات مؤجل مثل الجواسيس النائمين المزروعين في ارض العدو من سنوات؟ (....) كنت انكمش وانا اشاهد بغداد تقصف وترتفع فيها اعمدة الدخان بعد الغارات الامريكية. كأنني ارى نفسي وانا احرق شعري بولاعة سجائر امي" [49].

ان شعرية الرواية تمثلت في اعطاء الشخصية دفقة شعورية وعاطفية لاءمت بين سياق الموقف وسياق القضية في ابرازها لاشكالية الخيانة للوطن الام، سواء بالانتماء ام بالممارسة وما ترتب على ذلك من اقوال وافعال عكست تشتت الذات بين حقيقتها ووهمها، وتلك العلاقة الشائكة حول مفهوم الوطن والمواطنة يقول سلمان زين الدين: "في الخامسة عشرة من العمر تهرب الراوية المتحدرة من اسرة كلدانية – اشورية

مع اسرتها من بطش النظام العراقي السابق، وفي الثلاثين تعود مترجمة مع الجيش الامريكي، بدوافع شتى (..) وخلال هذه المهمة الصعبة تعيش اختباراً انسانيا فريداً يبرز فيه سؤال الهوية بقوة (..) الأبنة العدوة او الاهل الخصوم هو المحور الذي تدور حوله الرواية بحوادثها والذكريات. ويكون على كل شخصية ان تنطوي على الشيء وضده في آن " [50].

كما تظهر في الرواية (شعرية السخرية) فأذا كانت السخرية دالة، في احد جوانبها، على النقد الاجتماعي او الذاتي، فأنها في الرواية تحولت الى سخرية دالة على الخنوع والاستسلام "ساذجة كنت عندما تصورت الديمقراطية شعر بنات، سكرًا ملوناً ملفوفاً على عيدان رفيعة. اي لون تريد عمو؟ يغمس بائع الديمقراطية العود في السكر المذاب ويعطيه الى الطفل الذي يسيل لعابه. بعناكم حلماً اجمل من ان يتحقق. وجاء من طرفكم تجار، ابناء سوق، دكاترتة وعلماء ذرة وجنرلات. عرضوا علينا الوهم. حدثونا عن اسلحة دمار. بن لادن. قنبلة تنهي اسرائيل و11 سبتمبر ينتظر كبش فداء. صدقتونا وصدقناكم.[51]

تلاشت المشاعر، وحلت الحرب التي وزعت الانتماءات بين (مهيمن) المنتسب الى جيش المهدي، و(زينا) القادمة مع جيش الاحتلال. كان الاثنان محكومين دوماً بهاجس الحرية بوصفها مرجعية نفسية لكلا الطرفين، فالاول قضى سنوات اسيراً في حرب ايران ثم شاءت الحرب ان يتحول الى طائفة دينية (جيش المهدي) ليناهض الاحتلال و(زينا) التي حاولت تقديم حلم الحرية لبلدها الذي حرم سنوات طويلة منها، وفي حين نجح الاول في تحقيق ذلك الحلم الشخصي، فشلت هي "يمتثل مهيمن لقيم دينية وانتسابية ثابتة، فقد تعلق بايمان ديني وقاوم غزوا اجنبيا لبلاده، فيما حاولت زينا بعودة معاكسة ان تسهم في احتلال بلدها الاصلي (...) لا تبحث (زينا) عن تفسيرات لافعالها، فيما ظل (مهيمن) اميناً لشروط وجوده الوطني الشخصي"[52]. اثرت الحرب في تشكيل الهويات والانتماءات وفي الوقت الذي جعلت الحرب منها امرأة قابلة للتغير والتبدل "(كلب ابو بيتين) كما وصفتها طاووس المربية في حين بقيت الجدة والاخ مهيمن وطاووس محافظين على انتمائهم " انا غريبة حتى عن جدتي، ام امي. ان حيدر ومهيمن وطاووس اقرب اليها مني لانهم ظلوا مثلها عراقيين خلصاً. ذهب ليرة لا تشوب وطنيتهم جنسية اخرى"[53].

مثّل (مهيمن) رمز الرجل العراقي المعتز بوطنيته ومثلت الجدة رمز الماضي وارث الحاضر، ومثلت (زينا) حالة القلق التي عصفت بالذات العراقية، وهي تعود بهوية مزدوجة تقع في حصار على المستوى النفسي والمستوى الاجتماعي وتعيش وضعاً متذبذاً بين واقعين." من خلال هذه العلاقات الروائية التي تربط بين مجموعة من الثنائيات المتضادة، تقول (انعام كجة جي) في " الحفيدة الأمريكية " رفضها الحرب واستحالة التعايش بين المحتل والمحتَلة ارضه، واستحالة التصالح بين الوطني والمتعامل، واستحالة الجمع بين هويتين متقاتلتين. من هنايكون الشجن محصلة طبيعية لهذه الأستحالات. ويكون بداية الرواية والنهاية "[54]

كما افرزت الحرب عدة مدلولات منها ما يتصل بمضامين ايدلوجية بتنوع الانتمائات واخرى مذهبية. قسمت المجتمع الى طوائف مختلفة واخيراً فرزت الانسان ذكراً كان او انثى على اساس وطنيته لا على اساس انتمائه ومذهبياته اذ ظلت (زينا) تردد حتى نهاية الرواية " الي مضيع وطن وين الوطن يلكاه ".

الهوامش

1- الحفيدة الامريكية: 10

2-الرواية النسائية السعودية،خطاب المرأة وتشكيل السرد:318

3- م. ن: 316

4- يشير اليه "جينيت" بأنه نوع من الاعلان اذ يؤدي دور الافتتاحية في النص "يحيل مسبقاً على حدث سيحكي في حينه بتطويل "تحليل الخطاب الروائي:96

5- الحفيدة الامريكية:11

6- سرد المرأة وفعل الكتابة: 264

7- مراثي المكان السردي: قراءة في فضاءات الرواية العراقية: 9

8-الحفيدة الامريكية: 15

9-شعرية الفضاء (م. سابق) ص160

10- الحفيدة الامريكية: 41

11- م. ن: 71

12-الذات في مواجهة العالم: الاغتراب في القصة القصيرة: 34

13- الحفيدة الامريكية: 131

14- ينظر شعرية الفضاء (م. سابق): 107

15- الحفيدة الامريكية: 48

16- شعرية الفضاء: 141

17-الحفيدة الامريكية: 50

18-شعرية المكان: 176

19- ينظر: الرواية:114-116 مثلت الجدة (رحمة) وتدا من اوتاد المكان واحلة رمزية على جزء متجذر فيه،فكان استحضارهما للأصل والانتماء اللذين فقدتهما الحفيدة في سنين حياتها في (ديترويت)

20- الهوية والسرد: 37

21- الرواية النسائية السعودية: 134

22- الحفيدة الامريكية:127

23-شعرية المكان: 179

24-الحفيدة الامريكية:130

25- شعرية المكان: 179

26-السرد،الاعتراف، الهوية:164 وينظر ايضا ما قاله سلمان زين الدين في كتابه: شهرزاد والكلام المباح:39 -42 عن هذه الرواية

27-الحفيدة الامريكية: 75

28- م.ن: 144

29-م.ن: 195

30-م. ن

31–السرد النسوي (م.س):41
32–الحفيدة الامريكية: 16
33–م.ن:17
34– م.ن
35–م.ن: 18
36–م.ن
37–م.ن: 15
38– ينظر في ذلك ما قاله الدكتور عبد الله ابراهيم في كتابه السرد،الاعتراف، الهوية:112
39–الحفيدة الامريكية:195
40– السرد،الاعتراف، الهوية:161
41–الحفيدة الامريكية: 210
42– م. ن: 5
43– ينظر م. ن: 19– 20
44– م. ن: 32
45– م. ن: 134
46– م. ن: 34
47– م. ن: 35
48– م. ن: 23
49– شهرزاد والكلام المباح قراءات في الرواية النسوية: 39 – 40
50– الحفيدة الامريكية: 108
51– السرد، الاعتراف، الهوية: 166
52– الحفيدة الامريكية: 131
53– شهرزاد والكلام المباح قراءات في الرواية النسوية:42

CONFLICT OF INTERESTS
There are no conflicts of interest

المصادر:

1 – تحليل الخطاب الروائي، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1988.
2– الحفيدة الامريكية، انعام كجةجي، الطبعة الثانية،2009.
3 – الذات في مواجهة العالم، تجليات الاغتراب في القصة القصيرة في الجزيرة العربية، د. اميرة علي الزهراني، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت،2007.
4 – الرواية النسائية السعودية – خطاب المرأة وتشكيل السرد، سامي حرندي، ط1، 2008، ط2، 2012، بيروت.
5– السرد، الاعتراف، الهوية، د. عبد الله ابراهيم، ط1، بيروت، 2011.

6- السرد النسوي – الثقافة الابوية – الهوية الانثوية والجسد، د. عبد الله ابراهيم، ط1، بيروت، 2011.

7- شعرية المكان في القصة القصيرة جداً: قراءة تحليلية في المجموعات القصصية (1989 – 2008) هيثم بهنام بردي، د. نبهان حسون السعدون، ط1، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق 2012.

8- شعرية الفضاء- المتخيل والهوية في الرواية العربية، د. حسن نجمي،ط1،المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، 2000.

9- شهرزاد والكلام المباح قراءات في الرواية النسوية، سلمان زين الدين، ط1، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2010.

10 – مراثي المكان السردي: قراءة في فضاءات الرواية العربية، علي حسن الفواز، ط1، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، 2012.

11- مغامرة التجنيس الروائي سؤال الجنس والنوع، محمد صابر عبيد، اعداد وتقديم ومشاركة نخبة من النقاد واساتذة الجامعات، عالم الكتب الحديث، اربد – الاردن، 2012.